

العدول عن أسلوب الإنشاء إلى الخبر
في نماذج من آيات الذكر الحكيم دراسة بلاغية تحليلية

د. غالب محمد محمود الشاويش*

تاريخ القبول: ٢٠٠٩/٨/٢٠

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٨/٣/١٩

ملخص

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن سمة مهمة في الأسلوب القرآني، وهي العدول عن أسلوب الإنشاء إلى الخبر، ويقصد بهذا الأسلوب، أن تصاغ الجملة صياغة خبرية، ولكن دلالاتها دلالة طلبية؛ حيث تؤدي أغراضاً بلاغية، وأسراً بيانية؛ كالتفاؤل، والدعاء، والمبالغة في الطلب، والنصح والإرشاد، والاحتراز من صورة الأمر، والحرص على وقوع الشيء وغيرها من الأغراض.

Abstract

This research aims at uncovering an important feature in the style of the Holy Quran, the refrainment from the compositional style to the predicative one. This means that a sentence should be composed in terms of a predicative form which has an indication of request. The sentence will add various rhetorical purposes and interpretative secrets such as pessimism, supplication, overestimated request, advice, guidance, ensuring that a thing should happen, and the avoidance of the imperative form.

* قسم اللغة العربية، جامعة الحسين بن طلال
حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة:

تتنوع الأساليب في البلاغة العربية بين الخبر والإنشاء؛ فالجملة الخبرية تختلف عن الجملة الإنشائية، فالأولى لها وجود خارجي قبل النطق بها، فإن كانت مطابقة للواقع أو محتملة الوقوع فهي خبر صادق وإن كانت مخالفة للواقع فالخبر كاذب كقولك: (الجو بارد)، فبرودة الجو موجودة في الواقع، قبل أن ينطق المتكلم بهذا الخبر. أما الجملة الإنشائية فليس لها وجود خارجي، وإنما يكون وجودها عند النطق بها، فأنت تتشأنها إنشاء كأسلوب الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني وقد أدرجها البلاغيون تحت مسمى الإنشاء الطلبي، وكأساليب الإنشاء غير الطلبي: كالتعجب وأفعال المدح والذم وألفاظ العقود، والقسم، والترجي (١).

فالتنوع بين أسلوب الخبر والإنشاء من خصائص أسلوب القرآن الكريم، فالأديب إذا أراد أن يحرك مشاعر المخاطب، ويثير فيه الفكر والوجدان وتنشيط العقل، فإنه يلجأ إلى الأساليب الإنشائية من استفهام وأمر ونهي ونداء وتعجب..... الخ وإذا أراد أن يسرد الأخبار والإعلام عما يجري في الواقع، فإنه يلجأ إلى الأسلوب الخبري. ولكنه في بعض الحالات، يخرج الأديب عن هذا المألوف، فتجده يعبر بأسلوب الخبر في موضع الإنشاء، وكذلك يعبر بأسلوب الإنشاء في موضع الخبر لأغراض بلاغية، ومقاصد بيانية يطلبها المعنى. وهذه الظاهرة تعد من باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

وأما الدراسات السابقة لهذا الموضوع فقد جاءت مدروسة بصورة موجزة في ثنايا بعض كتب التفسير: كتفسير الكشاف للزمخشري، والمحزر الوجيز لابن عطية، والتفسير الكبير للرازي، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، والبحر المحيط لأبي حيان وغيرها. كما تناولت هذه الظاهرة بعض كتب البلاغة مثل: شروح التلخيص، وعلم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني للدكتور بسيوني فيود، والبلاغة فنونها وأفانها للدكتور فضل حسن عباس، حيث قمت بجمعها ثم درستها بصورة تفصيلية مبينا أسرارها البلاغية ومقاصدها البيانية.

لذا جاء هذا البحث ليلقي الضوء على هذه الظاهرة التي تتناول العدول عن أسلوب الإنشاء إلى الخبر في نماذج من آيات القرآن الكريم.

العدول عن أسلوب الإنشاء إلى الخبر

من المعلوم في علم المعاني، مجيء الإنشاء في صورة الخبر لغرض بلاغي، ومقصد بياني. والقرآن الكريم حافل بهذا الأسلوب؛ حيث يكون العدول عن أسلوب الإنشاء إلى الخبر لسر بلاغي.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلُهُ.....﴾ سورة البقرة: آية/٢٣٣.

فهذه الآية، تتحدث عن إرضاع الأمهات لأولادهن مدة حولين كاملين؛ لأن موضوع الإرضاع مهم لحياة الطفل؛ إذ يترتب على مدة الإرضاع أحكام شرعية تتعلق بالأم والطفل، وتلك الأحكام مبسطة في كتب الفقه.

(١) انظر السبكي أحمد بن علي (ت ٧٧٣ هـ/ ١٣٧١م)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ج١ص٤١٩، ص٤٢٠.

لقد بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة...﴾ فالمقصود بالوالدات في هذه الآية، الوالدات المطلقات بدليل سياق الآية التي قبلها، قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف....﴾ البقرة/٢٣١. حيث وصلت الآية بالتي قبلها بالعطف، بسبب اتحاد السياق بينهما. والشاهد في الآية، قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ فالخلاف الذي يقع بين الأب والأم يؤثر - في حالة الفراق - على رضاعة الولد ذكراً كان أو أنثى.

فالأُم - بسبب الفراق - لا ترغب في إرضاع ولدها، فتعطيه لأبيه انتقاماً منه؛ لأنها تدرك أنه سوف يجد عنثاً ومشقة في إيجاد مرضعة له، أو في إيجاد من تقوم برعايته وتربيته وحفظه. لذا جاءت جملة ﴿يرضعن﴾ في الآية خبرية، ولكنها تحمل في ثناياها معنى الأمر. وقد فصل ابن عطية حدود الأمر بقوله: ﴿الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على جهة الندب والتخيير لبعضهن﴾^(١). ويفهم من كلام ابن عطية السابق، أن الأمر للوجوب لبعض الوالدات يكون في حالة عدم رغبتهن في الزواج من زوج آخر، وأن ظروف الولد الصحية سيئة للغاية حيث إنه لم يقبل إلا ثدي أمه، أو أن والده معسر لا يستطيع استئجار ممرض له، فتكون الأم في هذه الحالة آثمة إذا أعادته إلى أبيه؛ لأن المتضرر هو الولد. ويكون الأمر على جهة الندب والتخيير لبعض الوالدات في حالة رغبة بعض الوالدات الزواج؛ لأن حصول المطلقة على زوج أمر عسير، بسبب عدم رغبة الرجال فيها، فهم ينصرفون عن المطلقة غالباً.

وأما السر البلاغي في مجيء الإنشاء في صورة الخبر، فهو:

أولاً - الشعور النفسي مع المرأة المطلقة. فالقرآن الكريم يراعي ظروفها النفسية، وأحوالها الخاصة، ومشاعرها المتوترة، لدرجة أنها تكره ولدها بسبب هذه الظروف.

لذا جاء الأمر بصورة الخبر ﴿يرضعن﴾ حتى لا تشعر المرأة بأن الأمر جاء للوجوب على إطلاقه، وإنما يأتي للندب والتخيير كما أشار إلى ذلك ابن عطية في قوله السابق بدليل قوله تعالى: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ سورة الطلاق/ آية ٦. فلو كان الإرضاع واجباً عليها لما استحققت الأجر.

ثانياً - حسن الظن ﴿بالوالدات﴾ من حيث إنهن يمتثلن أوامر الله ونواهيها؛ فانه - عز وجل - يخبر عنهن بصورة الخبر بأنهن يستجبن لرضاعة أولادهن تلقائياً من ذوات أنفسهن دون الطلب منهن بصورة الأمر المباشر، وهذا أدل على صدق امتثالهن، وسرعة استجابتهن لما هو مطلوب منهن، شريطة ألا يكون هناك عذر قاهر يمنع من ذلك.

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٦ هـ / ١١٥١م): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ج١، ص٣١٠، وانظر الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م)، الكشاف، بدون تاريخ طبعة، طهران، ج١، ص٣٦٩، وانظر السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م) الإمتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ج٣ ص٢٢٦.

وكذلك جملة ﴿لا تضار﴾ في قوله تعالى: ﴿لا تضارُ والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ من باب العدول عن الإنشاء (النهي) إلى الخبر على قراءة من قرأ برفع الراء ﴿لا تضارُ والدة﴾ كابن كثير وأبي عمرو وأبان عن عاصم (١).

فقراءة الرفع تفيد أن (لا) حرف نفي، فجاء الكلام خبراً في معنى النفي. وأما القراءة بالفتح: ﴿لا تضارُ والدة﴾ فتكون اللام حرف نهي والفعل ﴿تضارُ﴾ مجزوم بـ((لا)) الناهية، وظهور الفتحة جاءت للتخلص من التقاء الساكنين؛ فالساكن الأول الراء الأولى، والساكن الثاني: الراء الثانية وهي علامة الجزم، فالتقى ساكنان فحرك الحرف الثاني بالفتحة؛ لأنها أخف الحركات.

فالعمل المضعف إذا جزم أو كان مبنياً على السكون، يجوز فيه ثلاث لغات: الفتح مطلقاً، الكسر مطلقاً، اتباع حركة فاء الفعل وقد جاء قول جرير (٢) باللغات الثلاث:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ *** فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

ومعنى الآية: أنه لا يجوز للوالدة أن تلقي ولدها على والده حيث إنه لم يجد من يرضعه، وكذلك لا يجوز له أن ينزع منها ولدها مع رغبتها الشديدة في إبقائه عندها؛ لكي تقوم بإرضاعه والعناية به (٣).

والسر البلاغي في مجيء الخبر موضع الطلب (النهي) على قراءة الرفع ﴿لا تضارُ والدة بولدها﴾ هو حمل الوالدة على عدم إلحاق الضرر بالمولود؛ فأسلوب الخبر في موضع الإنشاء أبلغ في المنع، وأقوى في الزجر؛ لأنه يتضمن معنى النفي ومعنى النهي، فأسلوب النفي إخبار، وأسلوب النهي إنشاء. فالوالدة المرضعة خوطبت بأسلوبين: أسلوب النفي وأسلوب النهي، وهذا أحرى بالوالدة أن لا توقع الأذى على ولدها؛ لأنه بضعة منها.

ومن وضع الخبر في موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.....﴾ سورة البقرة: ٢٢٨

فالشاهد قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فجملة ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ ويراد بها الأمر (٤)، والتقدير: وليتربص المطلقات.

والتعريف في المطلقات للجنس يفيد الاستغراق، فالمطلقات لفظ عموم مراد به الخصوص في المدخول بهن، فيخرج من العموم المطلقة قبل البناء، والحامل، والمرأة التي لم تحض.... الخ وتفصيل هذا في كتب الفقه. والباء في ﴿بأنفسهن﴾ سببية؛ فيصبح المعنى من أجل أنفسهن؛ فلذلك أمرن بالتربص بأنفسهن، وهذا أدعى لهن بالتلبث والانتظار.

والسر في العدول عن الأمر إلى الخبر هو أن الخبر في صورة الأمر، يتضمن معنيين: معنى الخبر، ومعنى الأمر. نأخذ معنى الخبر ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ...﴾

(١) ابن عاشور محمد الطاهر، (ت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، تفسير التحرير والتنوير بدون تاريخ طبعة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ج ٢، ص ٤٣٤، وانظر ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ج ١، ص ٣١٢، وانظر الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٣٧٠.

(٢) الصاوي محمد إسماعيل عبد الله، شرح ديوان جرير، دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت، ج ١، ص ٧٥.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٣٤.

(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ج ٢، ص ٣٨٨، وانظر الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٣٦٥.

فالمسند إليه: المطلقات.

والمسند: يتربصن. فالجملة خبرية.

فإذا كان خبر المسند إليه جملة فعلية، فإنه يفيد التوكيد بمعنى أن الله - عز وجل - يأمر المطلقات بالتربص. فقوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن..﴾ يتضمن أسلوبين: أسلوب التأكيد وأسلوب الأمر الذي يتضمن معنى الإرشاد، وهذا الأسلوب أقوى في حث المطلقات على التربص، عندما يكون الخبر في صورة الأمر، ففيه تأكيد فعل المأمور به حتى كأنه أمر واقع.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء، قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُتَفَقَّهُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُتَفَقَّهُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُتَفَقَّهُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ البقرة: ٢٧٢. لقد كرر فعل (تتفقون) ثلاث مرات في الآية. مرتان بصيغة الشرط لبيان الملازمة بين فعل الشرط وجوابه، أي بين الإنفاق والأجر، ومرة بصيغة النفي والاستثناء، وهو أسلوب من أساليب القصر بطريق النفي والاستثناء، والمعنى أن يكون الإنفاق مقصوراً على ابتغاء وجه الله لا غير. وتكرار الإنفاق في الآية يدل على الاهتمام بعظمته وعلو شأنه.

والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿وما تتفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾، وهنا يرد سؤال، ما السر في مجيء (ينفقون) بصيغة النفي والاستثناء؟

والجواب عن ذلك: أن الجملة الخبرية ﴿ينفقون﴾ جاءت بمعنى الطلب: أي النهي، وتقدير الكلام: ولا تتفقون إلا ابتغاء وجه الله.

فمجيء الخبر بمعنى النهي، يتضمن معنيين :

١- معنى الخبر: ﴿وما تتفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ فالآية جملة خبرية تخبر عن المؤمنين الذين ينفقون؛ فالآية قد

سبقت بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين امنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ البقرة: ٢٦٧

وجاء الفعل ﴿تتفقون﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تجدد الإنفاق واستمراره من المؤمنين

فمجيء الآية بصورة الخبر، تفيد أن المؤمنين ينفقون من أموالهم طوعاً من أنفسهم دون أمر أو نهى، وهناك فرق بين الالتزام بالنفقة، والإلزام بها، وهذا ما يستفاد من مجيء الجملة بصورة الخبر.

٢- معنى النهي، ويكون تقدير الكلام ﴿ولا تتفقوا إلا ابتغاء وجه الله﴾.

فالخبر جاء بمعنى النهي، والنهي هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، فالنهي في هذا الكلام خرج إلى معنى النصح والإرشاد.

والسر في مجيء الخبر بمعنى النهي، هو التأكيد على نهى المؤمنين بألا يكون إنفاقهم لغير الله، فالآية جاءت جملة خبرية بمعنى النهي، فتضمنت معنيين: معنى الإخبار عن المؤمنين بأنهم لا ينفقون إلا ابتغاء وجه الله، ومعنى النهي، أي نهيبهم عن الإنفاق لغير الله وهذا أدعى إلى سرعة الاستجابة، والامتثال لأوامر الله ونواهيه.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ البقرة / ٨٣.

الشاهد في قوله تعالى ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ وبالوالدين إحسانا ﴿ حيث جاء أسلوب القصر في قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ أي قصر العبادة على الله عز وجل، فهو من باب قصر الصفة على الموصوف، وهذا النوع من القصر يسمى عند البلاغيين بالقصر الحقيقي؛ لأن هذه الصفة بحسب الواقع، مقصورة على الله وحده ولا تتعدى إلى غيره.

ولو نظرنا في جملة ﴿ لا تعبدون ﴾ لوجدنا أنها مكونة من فعل وفاعل، فهي جملة خبرية ولكنها في معنى النهي. فالآية تضمنت معنى الخبر وهو نفي العبادة عن غير الله، كما تضمنت معنى النهي، وهو النهي عن عبادة غير الله.

والسر البلاغي في التعبير بالخبر في موضع الطلب (النهي) هو أن الخبر أبلغ من صريح النهي لما فيه أن المنهي سارع إلى الانتهاء عما نهى عنه، فكأنه انتهى واستجاب لما طلب منه، فيخبر الناهي عنه بأنه امتثل لعبادة الله^(١). وهذا الخبر أيضا في قوله تعالى السابق ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ يأتي في معنى الأمر، ويكون التقدير ﴿لتعبدوا الله﴾ أو ﴿اعبدوا الله﴾ والسر البلاغي في مجيء الخبر بمعنى الأمر، هو أن الخبر أبلغ من صيغة الأمر؛ لأن الخبر مستعمل في غير معناه؛ فكان المأمور امتثل لأمر الأمر، فهو يخبر عنه^(٢) بأنه قد أسرع للاستجابة، فالخبر هنا جاء بمعنى النهي وجاء بمعنى الأمر، فقوله تعالى: ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ تتضمن معنى الخبر ومعنى النهي، ومعنى الأمر، وهذا أبلغ في تحقيق المطلوب وهو أن العبادة لا تكون إلا لله لا لسواه.

والذي يؤكد كون الخبر جاء بمعنى النهي والأمر، هو قوله تعالى في الآية: ﴿وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ حيث جاءت الأفعال: ﴿قولوا﴾، ﴿وأقيموا﴾، ﴿وآتوا﴾ بصيغة الأمر. كما يؤكد ذلك وجود قراءة أخرى ﴿لا تعبدوا﴾ وهي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب^(٣). وجاء المصدر إحساناً نائباً عن فعله في قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾. والتقدير ﴿وأحسنوا بالوالدين﴾ ليناسب ﴿وقولوا﴾ أو أن يكون التقدير ﴿يحسنون بالوالدين﴾ ليناسب ﴿لا يعبدون﴾. والباء في قوله تعالى: ﴿وبالوالدين﴾ تفيد الإلصاق، بمعنى أن يكون الإحسان إلى الوالدين مستمرا في حياتهما كالنفقة عليهما وكذلك بعد موتهما، كأن تصلي وتصوم وتحج وتتصدق وتقرأ القرآن وتذكر الله عنهما، كل ذلك يصل الثواب إليهما^(٤) بإذن الله.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ يَوْمَ أُقْرَبْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوُونَ﴾ البقرة / ٨٤

(١) انظر أبا السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١/١٥٤٤م) تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بدون تاريخ طبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ج ١ ص ١٢٣، وانظر البيضاوي ناصر الدين أبا سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، بدون تاريخ طبعة، دار الجبل، ص ١٧.

(٢) انظر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١ ص ٥٨٢، وانظر الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، التفسير الكبير، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ج ١ ص ٥٨٥.

(٣) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ١ ص ٥٨٥، وانظر الفراء يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) معاني القرآن، ط ٣، عالم الكتب-بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨٣م، ج ١ ص ٥٣، وانظر القرطبي، محمد بن أحمد الانصاري (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م)، الجامع لأحكام القرآن، ط ٣، دار الكاتب العربي، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م، عن طبعة دار الكتب المصرية، ج ٢ ص ١٣.

(٤) انظر صدر الدين علي بن علي بن محمد (ت ٧٩٢هـ/١٣٨٩م): شرح الطحاوية في العقيدة السلفية. تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط ١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٨ هـ، ص ٤٥٨ وما بعدها.

هذا الخطاب موجه لعلماء اليهود في عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - وقيل : إنه موجه إلى أسلاف اليهود وفيه تقريب للأخلاق^(١) والشاهد في الآية، قوله تعالى : ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

فجملته ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ خبرية بمعنى النهي، والتقدير: لا تخرجوا أنفسكم.

فجملته الخبر تضمنت معنى النهي، فهي خير ونهي. والسر البلاغي في ورود الخبر بمعنى النهي، هو تصوير المنهي عنه- وهو سفك الدماء التي تخصصهم، فالدماء دماؤهم، والديار ديارهم التي سيجلون عنها - بصورة منفردة تكرهها النفس، ويفر عنها الطبع السليم والذوق الرفيع^(٢).

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ سورة الصف: ١٢/١١.

الشاهد في قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾. فجملته ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ خبرية بمعنى الأمر، والتقدير آمنوا بالله. وجملته ﴿تُجَاهِدُونَ﴾ خبرية بمعنى الأمر والتقدير جاهدوا. والذي يدل على أن جملتي: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿تُجَاهِدُونَ﴾ خبريتان بمعنى الأمر، هو جزم الفعل ﴿يَغْفِرْ﴾ في الآية الثانية، فلما كان الخبر بمعنى الأمر: آمنوا، جاهدوا، جاز جزم الفعل ﴿يَغْفِرْ﴾ في جواب الخبر،^(٣) وعطف الفعل ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ عليه.

ومجيء الخبر بمعنى الأمر يتضمن معنيين: معنى الخبر ومعنى الأمر، وهذا أكد في تحقيق الإيمان في نفوس المؤمنين، وسرعة استجابتهم لداعي الجهاد، فالإخبار عنهم يفيد أنه قد حصل منهم الإيمان والجهاد. ومن ناحية أخرى أن مجيء الخبر بمعنى الأمر، يوحي بأن المؤمنين قد استجابوا للإيمان بالله والجهاد في سبيله استجابة طوعية ذاتية لا إلزامية، وهذا أدل على صدقهم وامتثالهم لأمر الله.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة النور / ٣.

في هذه الآية قدم الزاني على الزانية؛ لأن الآية نزلت في رجل مسلم اسمه مرثد ابن أبي مرثد كان يرغب في الزواج من امرأة زانية في مكة المكرمة، فلما كان الرجل هو الأصل في طلب الزواج، قدم الزاني على الزانية في هذه الآية مذمة للرجل الذي يريد أن يتزوج مثل تلك المرأة الباغية^(٤). والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ بالرفع فهما جملتان خبريتان بمعنى النهي. فالتعبير بالخبر في موضع النهي أكد وأبلغ في الزجر، والسر في ذلك أن

(١) انظر النيسابوري نظام الدين الحسن بن محمد (٧٢٨ هـ/١٣٢٧م): غرائب القرآن في رغائب الفرقان، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، ط١، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤ - ١٩٦٤ م، ج ١ ص ٣٦٢.

(٢) انظر أبا السعود، تفسير أبي السعود: ج ١ ص ١٢٤.

(٣) انظر الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ/١٣٩١م) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م. وانظر البيضاوي، تفسير البيضاوي، ص ٧٣٤، وانظر الطيبي شرف الدين الحسين بن محمد (ت ٧٤٣ هـ/١٣٤٢ م)، التبيان في البيان تحقيق: توفيق الفيصل، وعبد اللطيف لطف الله، ط١، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م، ص ١٤٠.

(٤) انظر ابن عاشور، ج ١٨ ص ١٥٢ وانظر النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج ١٨ ص ٥٧، وانظر البيضاوي، تفسير ابي، ص ٤٦٣.

الخبر بمعنى النهي يظهر المنهي عنه في صورة الواقع المحقق^(١)، فهو يتضمن معنيين: معنى الخبر ومعنى النهي، وهذا أدعى للمؤمنين أن يستجيبوا لنهي الله لهم عن الزواج بالزانيات، وهذه الآية وإن كانت نزلت في مناسبة معينة فحكمها عام، فالعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج...﴾ البقرة/١٩٧. فالحج عبادة لها تحليل وتحريم، فمن ألزم نفسه بالحج، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال. وجاء النفي بـ (لا) النافية للجنس، مبالغة في نهي الحاج عن جميع أجناس الرفث والفسوق والجدال، فاللفظ مطلق يتناول جميع أنواع المنهي عنها. فالرفث يشمل الجماع ومقدماته، وقول الفاحش من الكلام، والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، ويتناول جميع أنواع المعاصي، وأما الجدال فهو على وزن فعّال وأصله من الجدال أي القتال، وسميت المخاصمة بالمجادلة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يريد أن يقتل صاحبه عن رأيه، والجدال ليس منهياً عنه بجميع أقسامه؛ لأن منه المحمود كالدفاع عن الحق، ومنه المذموم كالدفاع عن الباطل.

الشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج...﴾ فظاهر هذه المنهيات خبر ومعناها النهي، أي يصبح تقدير الكلام هكذا: فلا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا. فلو حمل معنى الآية على الخبر لكان المعنى أن حجّه لا يصح مع واحدة من هذه الخلال، وعلى هذا الوجه لا يستقيم المعنى، إلا إذا أريد بالرفث الجماع، وأريد بالفسوق الزنا، وبالجدال الشك في وجوب الحج وهذا كفر، فكل واحدة من هذه الخلال، مفسدة للحج فلا يصح معها الحج. وحملت هذه الألفاظ على هذه المعاني، حتى يصح خبر الله - عز وجل - بأن هذه الأشياء لا توجد مع الحج.^(٢)

وأما إذا حمل الخبر على معنى النهي - وهو عدول عن ظاهر اللفظ - فإنه يصح أن يكون المقصود بالرفث الجماع ومقدماته وقول الفحش، وأن يكون المقصود بالفسوق جميع أنواعه، وأن يراد بالجدال جميع أقسامه فالنهي عن الشيء نهي عن جميع أقسامه؛ لأن اللفظ مطلق ﴿ولا رفث ولا فسوق، ولا جدال﴾ فهو يتناول جميع أقسامها، وعلى هذا الوجه نرى أن الآية تحث على التمسك بالأخلاق الحميدة والصفات الجميلة، والآداب الفاضلة التي ينبغي أن يكون عليها الحاج، حتى يكون حجه مبروراً وذنبه مغفوراً^(٣). والسر البلاغي في مجيء الخبر (النفي) موضع النهي، هو استبعاد وقوع المنهي عنه في الحج فكأنه لا يوجد أصلاً، فهذه الأشياء الثلاثة منهية عنها في الحج. أما الفسوق والجدال وإن كان منهياً عنهما في غير الحج، فإن الله - عز وجل - قد خصهما بالذكر في الحج، تعظيماً لحرمة الحج.

وذهب ابن العربي في كتابه (أحكام القرآن) إلى أن النفي ليس لوجود الرفث في الحج وإنما يرجع النفي إلى مشروعيته؛ فالرفث يوجد من بعض الناس في الحج.

(١) انظر فيود بسبوني عبد الفتاح، علم المعاني، دراسة بلاغية تحليلية ونقدية لمسائل المعاني، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، السعودية- الأحساء ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م، ج٢، ص١٢٨.

(٢) انظر أبا حيان محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م) تفسير البحر المحيط دراسة وتحقيق: عادل أحمد وعلي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ج٢، ص٩٩، وانظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٣١٩، وانظر ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١، ص٢٧٢، وانظر النيسابوري، غرائب القرآن في غرائب الفرقان، ج٢، ص١٧١.

(٣) انظر أبا حيان، تفسير البحر المحيط، ج٢، ص٩٩، وانظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٣١٩.

وكذلك يصدر من بعض الناس جنس من فسوق والجدال في الحج، فالنفي إذن، منصب على مشروعيته لا على عدم وقوعه^(١). وكذلك وردت قراءة عن عبد الله بن كثير وأبي عمرو بن العلاء برفع الأول والثاني وفتح الثالث (الجدال) ﴿فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ﴾. وعلى هذه القراءة تكون (لا) أختا لليس نافية للجنس. ويحمل الأول والثاني المرفوعان ﴿فلا رفثٌ ولا فسوقٌ﴾ على معنى النهي، فكأنه قيل: فلا يكون رفثٌ ولا فسوقٌ أو لا يكون رفثٌ ولا فسوقٌ، وخبر (لا) محذوف، وأن المصدرين قد نابا عن فعليهما، وأنهما رفعا لقصد الدلالة على الثبات أي إن هذا النهي عن الرفث والفسوق ثابت في الحج. وأما نصب جدالٍ ﴿ولا جدالٌ في الحج﴾ فعلى اعتبار أن (لا) نافية للجنس نصاً، وخبرها ﴿في الحج﴾. وهذه الجملة معطوفة على الجملة التي سبقتها، حيث جاءت هذه الجملة على معنى الإخبار بنفي الجدال، فكأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج.

وعلى كلا القراءتين يكون الخبر مستعملاً في معنى النهي، بقصد المبالغة في النهي^(٢). ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف/٩٢.

الشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فهي جملة خبرية في موضع الإنشاء؛ لأنها جملة دعائية. فـ (يوسف) عليه السلام، يدعو لإخوته بالمغفرة والرحمة حيث إنه أخبر بالصفة التي تكون سبب الغفران، وهو أن الله - عز وجل - أرحم الرحماء. وقد جاء الدعاء ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بصيغة المضارع إرشاداً لهم بأن يخلصوا التوبة لله - عز وجل -^(٣).

كما جاء الدعاء بصيغة المضارع، ليفيد معنى التجدد والاستمرار؛ فالمغفرة متجددة لهم من الله عز وجل طالما تابوا واعترفوا بخطئهم، حيث أخبر الله عن توبتهم بقولهم: ﴿وإن كنا لخاطئين﴾ يوسف / ٩١. وهذا الدعاء جاء بصيغة المضارع؛ لأنه جار على الأصل، أما إذا جاء بصيغة الماضي فيكون الدعاء للتناول^(٤). والسر في مجيء الجملة دعائية في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هو مناسبتها لصدر الآية، وهو عفو يوسف - عليه السلام - عن أخوته، والصفح عن جريمتهم، حيث قال الله - عز وجل - على لسانه - عليه السلام - ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. فكونه صفع عنهم، وتنازل عن حقه في الدنيا، فهو يدعو الله أن يغفر لهم جريمتهم في الآخرة. ومعنى التثريب: الاستقصاء في اللوم، والإفساد والتخليط^(٥). وقال الزجاج: "لا إفساد عليكم"^(٦)، أي لا عتب

(١) انظر ابن العربي محمد بن عبد الله (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م)، أحكام القرآن، تحقيق: علي البجاوي، بلا تاريخ طبعة، دار المعارف، القاهرة، ج١ص١٦٢، انظر أبا حيان، تفسير البحر المحيط، ج٢ص١٠٠، وانظر حسين عطوان، القراءات القرآنية في بلاد الشام، دار الجيل-بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٣م ص٣٢٥.

(٢) انظر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢ص٢٣٣، وانظر أبا حيان، تفسير البحر المحيط ج٢ص٩٨.

(٣) انظر البقاعي برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. خرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق غالب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ج٤ص٩٥.

(٤) انظر النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج١ص٤٥.

(٥) انظر ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، بلا طبعة، دار صادر، بيروت، (ت٧١١هـ/١٣١١م)، ج١ص٢٣٥، مادة ثرب.

(٦) الزجاج أبو إسحاق إبراهيم السري (ت٣١١هـ/٩٢٣م)، معاني القرآن وإعرابه. تحقيق: عبد الجليل عبد شلبي ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج٣ص١٢٨.

ولا توبيخ ولا تأنيب عليكم. وأصل الثرب^(١): الشحم الرقيق الذي يكون ملتصقاً بالكرش والأعضاء، فإذا أزيل كان غاية الهزال والضعف.

فالنترب جار مجرى المثل، فهو مبني على الاختصار^(٢) ككلمة ﴿لَا وَزَرَ﴾ في قوله تعالى ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ القيامة/١١.

وكلمة (لا بأس) في قوله عليه السلام للمريض: (لا بأس طهور إن شاء الله)^(٣). وهذا المثل ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ يضرب للتعريض، ومعنى التعريض: أن تذكر عيوب الرجل في وجهه، فتقول له: أنت قلت كذا وكذا^(٤).

فالنترب يذهب بماء الوجه، فيسبب للشخص الملوم الهزال والضعف والتعب، فقوله: ﴿لَا تَتْرِبَ﴾ معناه: لا لوم ولا توبيخ ولا عتاب عليكم. وأشار إلى اليوم؛ لأنه أول أيام العفو، وهو:

أ- إما أن يكون متعلقاً بالمصدر ﴿تَتْرِبَ﴾ فيكون التقدير: (لا أثرَ بكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التتريب فما ظنكم بسائر الأيام)^(٥). وقد رجح أحمد بن المنير في كتابه الانتصاف على هامش الكشاف تعلق (اليوم) بالمصدر (تتريب) بدليل أن إخوة يوسف، طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم، قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ يوسف/٩٧.

ورد الأب عليهم قائلاً: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يوسف/٩٨.

وهذا قولهم وقول أبيهم يشير إلى أنهم ما زالوا في عهدة الذنب ولو كان (اليوم) متعلقاً بـ (يغفر) للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ بإخبار النبي لهم^(٦).

ب- وإما أن يكون (اليوم) متعلقاً بـ (عليكم) فيكون تقدير الكلام: لا تتريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم^(٧).

ج- وإما أن يكون (اليوم) متعلقاً بـ (يغفر)؛ أي بجملة الدعاء فيكون فيه بشارة بعاجل المغفرة من الله عز وجل بسبب تجدد توبتهم وحدثها في ذلك اليوم^(٨). وقد ذهب ابن عاشور إلى هذا الرأي - أي تعلق (اليوم) بجملة (يغفر) - لأنها ساعة توبة، فالذنب مغفور، لإخبار الله في شرائعه السالفة دون احتياج إلى وحي، سوى أن الوحي لمعرفة إخلاص توبتهم^(٩).

(١) انظر ابن منظور، لسان العرب، ج١ص٢٣٤.

(٢) انظر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٣ص٥٠.

(٣) انظر البخاري محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، ط١، المكتبة الإسلامية، اسطنبول-تركيا، ١٩٧٩م، ج٧ص٦.

(٤) انظر ابن منظور، لسان العرب، ج١ص٢٣٥، مادة ثرب.

(٥) انظر الرازي، التفسير الكبير، ج٦ص٥٠٦.

(٦) انظر ابن المنير أحمد بن محمد، (ت٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، الإصناف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، بدون طبعة، طهران، ج٢ص٣٤٢.

(٧) انظر ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣ص٢٧٧، وانظر الدرويش محي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط٨، دار اليمامة، ودار ابن كثير، دمشق-بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ج٤ص٣٥. وانظر النيسابوري، غرائب القرآن ورفائب الفرقان، ج١٣ص٤٥.

(٨) انظر النيسابوري، غرائب القرآن ورفائب الفرقان، ج١٣ص٤٥.

(٩) انظر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٣ص٥٠.

وقد ذكر الرازي أن قوله (اليوم) متعلق بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فلما نفى التثريب مطلقاً؛ لأن قوله ﴿لَا تَتْرِبُ﴾ نفى للماهية، ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع أفراد الماهية أي يتناول جميع الأيام.

فلما نفى التثريب، بشرهم بأن الله قد غفر ذنبهم في هذا اليوم، وذلك بسبب توبتهم واعترافهم بخطئهم، فإله قبل توبتهم وغفر لهم فذلك قال: ﴿اليوم يغفر الله لكم﴾^(١). وكل هذه الاحتمالات واردة، لأن المعنى يتوقف على قراءة القراء لقوله تعالى: ﴿اليوم﴾.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة/١٧٩. الشاهد في الآية الكريمة قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، فهي جملة خبرية بمعنى الطلب (أي الأمر). والتقدير: اقتصوا من القتل المجرمين لتتحقق بذلك الدماء؛ فالقاتل إذا عرف أنه سيقتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رأى الناس القاتل مقتولاً، اندعروا، وانزجروا عن القتل، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يكف الناس عن القتل، ولحصل بينهم القتل كما هو حاصل في المجتمعات العشائرية. ولما كان حكم القصاص لا يعرف كنهه إلا أصحاب العقول الراجحة، خصهم الله - عز وجل - بالخطاب دون سواهم.

ففي القصاص حياة للمجتمع، في حالة إقامة حدود الله - عز وجل - في المجتمع، وبغير ذلك، تكون الفوضى والفتن التي لا تنتهي، ولا يحمد عقابها. وجاء التعبير بالجملة الخبرية للحث على القصاص، والتنبية على فضله في ردع القاتل وغيره من أفراد المجتمع، لكي يحيا المجتمع حياة هادئة مطمئنة، بعيدة عن القلق والتوتر والهيجان.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿لَمَّا يَمَسُّهُ الْإِنسَانُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَطَهَّرُونَ﴾ الواقعة/٧٩. الشاهد في الآية، قوله تعالى: ﴿لَمَّا يَمَسُّهُ﴾ جملة إخبار متضمنة معنى النهي، فضمة السين على هذا الوجه، ضمة إعراب لا ضمة بناء^(٢). والسر البلاغي في مجيء النفي بمعنى النهي، هو المبالغة في النهي^(٣). فكأنهم نهوا، فامتثلوا للنهي فوراً وهو عدم مس المصحف، ثم أخبر عنهم بأنهم امتثلوا، للدلالة على سرعة استجابتهم، وتنفيذهم لما نهوا عنه.

ثم جيء بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء؛ لبيان أن المطهرين هم وحدهم الذين يمسون القرآن ويقرؤونه. قال البيهقي: (وهو قول أكثر أهل العلم)^(٤). فهذه الآية خبرية لأهل السماء (الملائكة) وإنشائية لأهل الأرض (الناس).

وللفقهاء تفصيلات في مس المصحف والقراءة فيه، وموطن ذلك كتب الفقه.

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج٦ ص٥٠٦.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج٥ ص٢٢٥، وانظر أبا حيان محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، ج٨ ص٢١٣، وانظر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٧ ص٤٢٥، وانظر الشيرازي عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، دار الجيل، ص٧١٣، وانظر السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار الفكر العربي، ج١ ص٤٢٢، وانظر السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣ ص٢٢٦، وانظر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٧ ص٤٢٥، وانظر القرطبي محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م) الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج٩/٢٢٥، ٢٢٦، وانظر الحلبي أحمد بن يوسف (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم - دمشق، ط ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٣) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٧ ص٤٢٥.

(٤) انظر السابق: ٤٢٥/٧.

ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ. ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ القيامة/٣٥، ٣٤. نزلت هاتان الآيتان في أبي جهل، بعد أن بين الله - عز وجل - أوصافه مرتبة في قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾ القيامة/٣١، ٣٢. فكل صفة من هذه الصفات، تقابلها كلمة ﴿أولى﴾
﴿فلا صدق﴾ تقابلها ﴿أولى لك﴾ وهو تهديد
﴿ولا صلى﴾ تقابلها ﴿فأولى﴾ وهو وعيد.
﴿ولكن كذب﴾ تقابلها ﴿أولى لك﴾ وهو تهديد.
﴿وتولى﴾ تقابلها ﴿فأولى﴾ وهو وعيد.
ففي الآيتين: تهديدان ووعيدان. ومعنى ﴿أولى لك﴾ الزجر والانتهاه والتوعد والويل^(١). وجاء عن أبي علي الفارسي أن ﴿أولى لك﴾ علم للويل^(٢). وقد قيل (أولى) اسم فعل ماضٍ مبني ومعناه: وليك شر بعد شر^(٣).
فقوله تعالى: ﴿أولى لك فأولى﴾ جملة خبرية ومعناها الدعاء أي ويل لك (والمقصود أبو جهل)، وهو دعاء عليه بأن يليه من المكروه ما يكره.

قال القاضي أبو محمد: المعنى: بعدا لك في أمر دنياك، وبعدا لك في أمر أخراك^(٤). ولذا كررت كلمة (أولى) أربع مرات في الآيتين السابقتين؛ للدعاء على أبي جهل بالويل والثبور في جميع مراحل حياته قبل الموت وبعده بسبب كفره وجحوده وعناده، فكأن الله - عز وجل - يقول له: الويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم أن تبعث، والويل لك يوم دخولك النار. والسر في هذا الدعاء، هو تهديد ووعيد لأبي جهل وأمثاله من جهة، ونصح وإرشاد لكل إنسان ألا يفعل فعله، فسيكون مصيره كمصيره من جهة أخرى. ومن وضع الخبر موضع الإنشاء قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة/آية: ١. الشاهد في قوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ فهي جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى على جهة المدح والتعظيم، ولذا كان الحمد إخباراً يتضمن إنشاء^(٥).

والسر البلاغي في العدول عن الإنشاء إلى الخبر يعود إلى أمرين:

الأول: إن الجملة الخبرية ﴿الحمد لله﴾ لها من الخصوصيات في حمد الله-عز وجل- ما لا يمكن حصوله بصيغة الإنشاء فجملة: ﴿الحمد لله﴾ اسمية تدل على دوام الحمد واستمراره، كما تدل على عدم ارتباط الحمد بزمان معين أو قائل معين؛ فانه-عز وجل- محمود، قبل أن يحمده الحامدون، وقبل أن يشكره الشاكرون، فحمده مطلق غير مقيد^(٦).

(١) انظر الزمخشري، الكشاف، ج٤ ص١٩٣، وانظر ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٥ ص٤٠٧، وانظر أبا حيان، تفسير البحر المحيط، ج٨ ص٨١

(٢) الألويسي أبو الفضل شهاب الدين محمود: (ت ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تصحيح محمود شكري الألويسي، بدون تاريخ طبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ج٢٩ ص١٤٩.

(٣) انظر المصدر السابق: ١٤٩/٢٩.

(٤) الرازي، تفسير الجامع الكبير، ج١٠ ص٧٤٦.

(٥) الألويسي أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١ ص٧٠.

(٦) انظر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١ ص١٦٢، وانظر النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج١ ص٩٢.

الثاني: إن الجملة الخبرية أولى في هذا المقام من الجملة الإنشائية؛ لأنه لو قيل: ﴿أحمدوا الله﴾ بأسلوب الأمر لكان تكليفا للإنسان أن يحمد الله ويشكره على نعمه الكثيرة التي لا تعد، قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إبراهيم/٣٤، النحل/١٨. وهذا الأمر بالحمد ربما لا يستطيع الإنسان أن يقوم به؛ لأنه فوق ما يستطيعه بسبب عدم اقتداره على عدّ نعم الله، لذا كان العدول عن الإنشاء إلى الخبر، لهذا الغرض^(١) - والله أعلم - فجملة ﴿الحمد لله﴾ إذاً، جمعت بين معنيي الخبر والإنشاء^(٢). وهذا أقوى في دلالة المعنى.

والحمد نقيض الذم^(٣)، والمدح نقيضه الهجاء، والشكر نقيضه الكفران^(٤). والتعريف في الحمد، إما للعهد، بمعنى أن الحمد معروف ومعهود بين الناس، وإما للجنس، أي يشمل كل أنواع الحمد، والمعنى يحتل النوعين. قوله: ﴿رب العالمين﴾، الرب معناه: المربي والمالك، والسيد، والقيم، والمنعم^(٥). والعالمين جمع عالم، والمقصود به جنس من أجناس الموجودات فيقال: عالم الملائكة، عالم الإنسان، عالم النباتات، عالم الحيوان، عالم الجن، عالم الشياطين وهكذا، والتعريف فيه للاستغراق^(٦).

وقبل أن أنهى هذا البحث، لابد من الإشارة إلى نوع من الجمل الإنشائية، تكون إنشاء من حيث اللفظ، خبراً من حيث المعنى كقوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ الشرح/آية ١.

فالصيغة في هذه الآية استفهام، وهو نوع من أساليب الإنشاء ولكنه من حيث المعنى خبر إذ المعنى: قد شرحنا لك صدرك. وقوله تعالى: ﴿ألم نريك فينا وليداً﴾ الشعراء/آية ١٨. فالأسلوب استفهام وهو نوع من الإنشاء، ولكنه خبر من حيث المعنى، فالتقدير: قد ربيت وليداً عندنا. وقوله تعالى: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ الكهف/آية ٧٥. فهذه الصيغة صيغة استفهام، وهو نوع من أساليب الإنشاء، وعند التدقيق تجد هذا النوع من الأسلوب إنشاء في اللفظ، خبراً في المعنى إذ التقدير: لقد قلت لك ذلك من قبل.

وقوله تعالى: ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله﴾ يوسف/آية ٨٠. فقوله تعالى ﴿ألم تعلموا﴾ أسلوب استفهام وهو من أساليب الإنشاء، ولكنه من حيث المعنى خبر؛ فالتقدير: قد علمتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله.

وهذا النوع من الاستفهام الذي يكون إنشاء من حيث اللفظ وخبراً من حيث المعنى يقع في الاستفهام الذي يخرج إلى معنى التقرير.

والسر البلاغي فيه، هو تثبيت الخبر، وتقرير المخاطب بأمر قد ثبت وتحقق عنده، دون أن ينتظر منه جواب، فأبلغية هذا النوع من الأسلوب، تعود إلى إخبار المخاطب بما ثبت عنده، ونزع الاعتراف منه^(٧).

(١) النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج ١ ص ٩٣، وانظر الزمخشري، الكشاف، ج ١ ص ٣٧.

(٢) السامرائي الفاضل صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ط ١، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص ١٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج ٣ ص ١٥٥، مادة: حمد.

(٤) النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج ١ ص ٩٢.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج ١ ص ٣٨٤، مادة: ريب.

(٦) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١ ص ١٦٨.

(٧) فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها علم المعاني، ط ٢، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ص ١٩١، ١٩٢.

خاتمة

يخلص هذا البحث إلى أن وضع الخبر موضع الإنشاء، أسلوب من أساليب القرآن الكريم، حيث ترد الجملة خبرية ولكن دلالتها دلالة إنشائية؛ فهذا النوع من الأسلوب، يتضمن معنيين: معنى الخبر ومعنى الإنشاء. وقد ظهر في البحث أن صيغة الأسلوب الخبري التي تقع موقع الإنشاء تتكرر كثيرا في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين...﴾ فالشاهد جملة (يرضعن) فهي خبرية في موضع الإنشاء، وقوله تعالى: ﴿فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج﴾ فظاهر هذه المنفيات خبر ومعناها النهي، وتقدير الكلام: (فلا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا)، حيث وضح ذلك مفصلاً في البحث. وهذا العدول عن الخبر إلى الإنشاء يأتي لأغراض بلاغية، وأسرار بيانية كالتفاؤل، والاحتراز عن مجيء الشيء بصورة الأمر، والمبالغة في الطلب بقصد التأكيد، وسرعة الامتثال، والتنبيه على سهولة الأمر، والدعاء، والتوجيه والإرشاد. وقد أشرت إلى هذه الأغراض وغيرها في صفحات البحث. وهذا الأسلوب الذي يوضع فيه الخبر موضع الإنشاء، يثير في المتلقي أبعادا نفسية وفكرية واجتماعية.